

الكتابة الغرافيتية والقانون السوسiolساني

د. الجمعي بولعراس

معهد اللغة العربية

– جامعة الملك سعود – الرياض

الملخص:

لا ريب في أن الأوضاع الاجتماعية بمختلف مشاربها السياسية والثقافية وغيرها تضمنتها اللغة، وأن العلاقة بين السياقين متين، وهذا ما حاولت اللسانيات الاجتماعية بلورته من خلال التقارب المنهجي لعلمي الاجتماع واللسانيات، ومن هنا فمدخلتنا تحاول أن تبرز ظاهرة بارزة على السطح اليوم وهي ظاهرة تواتر العبارات المنحرفة في النسيج اللساني الاجتماعي من حيث الكم والنوع التي تصيب اللغة العربية المعاصرة، وتدل إلى مؤشر خطير في مسارات الكلام، وبخاصة في تمثّل مفردات ونصوص اللغة العربية المعاصرة للمستجدات السياسية والثقافية والاجتماعية المعاصرة، الأمر الذي دعا العلماء إلى النظر في :

هل الفعل الاجتماعي ناتج عن مستحاثات اللغة؟

Abstract:

There is no doubt that social conditions is contained in language, in the various political and cultural orientations, etc., . And that the relationship between this contexts is solid. This is what socio-Linguistics tried to study, through the convergence of systematic scientific meeting and Linguistics. Hence, this study is trying to highlight to a phenomenon which prominent on the surface today, it is frequency of phrases deviant in the socio-linguistic fabric, in terms of quantity and quality, which infect the Arabic language contemporary , so, we indicate a serious indicator in the speech paths, especially in representing vocabulary, and contemporary Arabic texts, to developments in the political, cultural and contemporary social fields, which called for scientists to consider:

-Is social action resulting from the linguistic reasons?

Résumé:

Il ne fait aucun doute que les conditions sociales sont contenues dans le langage, dans les différentes orientations politiques et culturelles, etc.,. Et que la relation entre ces contextes est solide. Ce est ce que la socio-linguistique essayé d'étudier, par la convergence de réunion scientifique systématique et linguistique. Ainsi, cette étude tente de mettre en évidence un phénomène qui visible sur la surface aujourd'hui, ce est la fréquence des phrases déviantes dans le tissu socio-linguistique, en termes de quantité et de qualité, qui infectent la langue arabe contemporaine, oui, nous indiquons un indicateur grave dans les chemins de la parole, en particulier dans la représentation vocabulaire et textes arabes contemporains, aux développements dans les domaines politiques, sociales, culturelles et contemporaines, qui ont appelé les scientifiques à considérer:

- Est-ce que l'action sociale résultant des raisons linguistiques?

تمهيد:

يقول المعري: (...وقد تأملت العوالم فوجدت عالم الجمد يشبه العالم النامي من جهات، ووجدت النامي يشبه العالم الحي غير الناطق شيئا أغلب من الجمد بالنامي، ووجدت الحي غير الناطق يشبه الناطق يشبه الناطقين شيئا أغلب من الذي قبله، ووجدت الناطقين يشبهون عالم نطقهم في بعض الشئون...) ¹. بل يكاد يتطابق القول مع الفعل، وقديما تقبلنا فكرة الاعتبارية اللسانية في الدراسة المستقلة للغة المنطلقة من الذات اللغوية ولأجله ²، والمتأمل يلحظ أن مسارات الكلام تتحكم فيها أنظمة المجتمع التي تولد النظام اللساني وتغير مساراته، ومن ثم فالتوجيهات القواعدية أساسها وأسها المجتمع، إن الاعتبارية اللغوية لا توصف بمعيار يباعد أصل الاعتبار اللساني الذي هو الاعتبار السلوكي الفعلي والاعتقادي الاجتماعي، فالإنسان عنصر من المكون النسيجي الاجتماعي، وإضافة إلى أنه تربطه وشائج علائقية بالنسيج الاجتماعي فهو بونقة نفسية تتفاعل فيها هذه الطبولوجيا المجتمعية ويتمثلها بدرجات متغيرة، والذي يهمننا في هذه الورقة هو الكشف الباثولوجي في التمثل اللساني، والذي يقودنا إلى تصور جديد عن أنظمة اللسان ومنطلقات دراسته.

المعروف أن الفرد الاجتماعي عنصر من الجماعة التي تربطه به علائق تفاعلية تصورية ثم تربطه وشائج أخرى بالمحيط والوضع الاجتماعي العام، السياسي والاقتصادي والأيدولوجي... وغير ذلك من مجالات الحياة، وكل هذه العوامل تترك إشعاعات سيكولوجية في الصورة الذهنية والطريقة التعبيرية والأسلوبية في السلوك عامة والسلوك اللغوي خاصة، فالبصمة المكونة في الذات الإنسانية ناتج داخلي وخارجي وناتج بمعيار راهني الزمان والمكان. ومن ثم تتجلى الإشكالية التي نريد أن نلفت إليها النظر من ناحية الانحرافات التشكيلية والدلالية في الوضع اللغوي الموصوف بالمتوحش وما يلحق اللغة من أوصاف الإرهابية وغير المنطقية والمترجمة في الفعل السلوك العام والانطباع العام عن الشعوب في السياقات المعاصرة في التعاملات اليومية، ومن هنا فالملاحظ لمسارات الكلام يندesh لهذه الانعطافات الخطيرة التي غاب فيها التوجيه والرقابة، ومن ثم تطورت الظاهرة اللسانية تطورا جرثوميا لا يحكمها ضابط ولا قانون ولا تشكل عقلائي اجتماعي.

ومن جملة هذه المظاهر:

1- المظاهر الغرافيتية والقانون اللغوي:

كتب العلماء من القديم إلى العصر الحالي كتابات وصفية تريد أن تقعد للسلوك اللغوي وتفرض سلطة للغة على الإنسان خارجة عن إقران هذه القواعدية بدراسة موازية بالقطب الاجتماعي التي تقرر كيانا سلطويا أيضا بمنهج وأصل النظام اللساني، وانطلاقا من هذه السلطة السوسولوجية انعكست منعكسات في اللغة وتوجهات في الكلام أيديولوجية وقيمية وعرفية... وغير ذلك، الأمر الذي أظهر قواعد تنثور وتتمرد على القواعد الصارمة، والأنظمة المهيمنة التي في تصورنا لن تكون قارة مادامت تمظهراتها تتجدد ولا تتمثل في كل جيل بالدقة والنسبة التامة، بل تنزع إلى الانزياح والتغيير والاستقلال الشخصي، فالمعطيات اللسانية التي نلقاها تتغير دائما معجميا ودلاليا وتداوليا وغير ذلك من الانعطافات في المستويات اللسانية، فاللسان الذي تكلم به الأجداد ليس هو اللغة المعاصرة التي نتداولها، حب من حب وأنكر من أنكر، وعلى الرغم من أنوفنا فإننا يجب أن نعترف بأن الواقع اللغوي جديد عم سبق، وخاصة في الجوانب المهمة في الدرس البحثي العلمي، ومظاهره لغة الشارع والتداول الاجتماعي الذي أظهر إمكانات أخرى للتمثل اللساني والاستخدام اللغوي.

إن هناك تشريع لساني، وشرح كلامي، لا يلتقيان على الرغم من التوجيهات اللسانية التي تريد أن تهذب وتعلن وتمنطق اللغة، وتتجو بها عن الانحرافات إلى المعيار الموصوف سلفا بمعزل عن المجتمع وتركيباته المختلفة وفي أزمان متغيرة الوقائع والطبائع، الأمر الذي لا يلبث أن يتلقى بسخرية، وأول مظاهر هذا الانحراف التلوين الألفوني

الفونولوجي في المجتمع نفسه والزمن نفسه، وهذا التقبل المتلون للسان المحافظ على القيمة اللسانية الموجدة مقبول لدى المتلقي مرفوض في الوضع الأدائي للنماذج اللسانية كتلاوة القرآن والأداء الشعري. نعم هناك أمور نريد أن يكون عليها الواقع اللغوي لكن أن نهمل المتداول في الشارع وندعي الدراسة الموضوعية غير الانتقائية وغير الإقصائية أمر يرفضه البحث العلمي، فالدراسة القائمة على دمج الواقع الاجتماعي والأنثروبولوجي واللغوي ببعضهم البعض هو في نظري يعطينا مصداقية أكبر في التقرير العلمي للغة.

إن تمثيلنا للمظاهر الفونولوجية ما هو إلا بداية للحديث عن التمردات القواعية في تكون القضايا اللغوية ومنها الباثولوجيا اللسانية، ومن مظاهرها قضايا الطابوهات اللسانية مثل تلك التي تتعلق بالدين والجنس والسياسة، والتي تصنف في ركن الانحرافات اللغوية مثل تلك الرواكد التي تظهر بقوة في المتغيرات الحضارية الراهن، وهي تلك السلوكات اللسانية التي تؤدي أفعالا سلوكية وانحرافية خطيرة للغاية في الكون الاجتماعي، وبحجم كثافة حضورها في الفعل اللغوي يكون البناء السلوكي العام للمجتمع وتنسج خيوط شبكته وعلاقات الإنسان المتمدن المعاصر، ومن مظاهر هذا التكون السلوكي اللساني الصياغات الجاهزة أو ما يُعبر عنه بالعبارات الاصطلاحية، وهي أول المظاهر اللسانية التي كان لها حجم كبير في الحضور اللغوي المعاصر، ثم المصاحبات الصوتية والأدائية السيميائية، ثم التمويهات التعبيرية الأخرى التي تستحضر بمتعلقات تاريخية وليست هي في القانون الراهن وحضورها في الخطاب الأيديولوجي أقوى من غيره، هذا الخطاب المشحون والممزوج بقضايا غامضة غير معرفة بمكوناتها الأصلي، وهذا ما يظهر أكثر في الخطاب الشعبي والمحاكاة المخادعة لقانون تمايزها في الأجيال السابقة، حيث يمسحها طابع الغموض والضبابية وتنتج أفعال أثارها سريعة التواجد وأكبر استجابة لأفعال القول، وتتعلق بالانفعالات والآمال والطموحات والميول الغريزية، وأمثلة في الواقع: المال والجنس والطموح والحرية والدين... وغير ذلك مما يستميل الإنسان المعاصر، حيث عمل الخطاب الراهن على تغذيتها وإشباعها والتركيز عليها لتعطي نتائج مربكة لمنهجها ومتلقيها ومربحة لمن يسيرها ويستثيرها بمكر وخداع ودهاء، وخاصة إذا تعلق بالسياسة والدعاية الخبيثين، بالتركيز على مكونات الإنسان ومكونات اللسان المبني على سرعة الاستجابة والمطلب الحضاري المتسارع.

هناك مظهر آخر لتلك الأساليب غير القانونية في نظر المعيار اللساني هو اللغة الجديدة الآتية والمتمثلة في الأغاني وكتابات الجدران والأحكام الجرافيتية، بغض النظر في كونها إبداعات مسكوت عنها ومغيبية في ظل مدح موازي لا ينتهي لأساليب اللغة المهذبة المنحرفة في إبداعات الشعراء والأدباء، ومن هنا كان لزاما علينا الالتفات إلى هذه الجوانب اللسانية وصفا وتحليلا للغاية البرغماتية مثل بناء حركة اصطلاحية من هذا الجانب، ونحن نعتبر الجانب القانوني والجانب الشعبي لمظاهر تواجد اللسان مهمان بوجهان سبان في طرق وكسر لغة الأخلاق المدعاة مثل لغة الشعر والفن، ومنه يمكن أن نستنتج فهما أوضح للتمرد وقانونا لسانيا خاصا به مثل الشعريات الفنية في اللسان القياسي، كما أنها تعطينا فهما جديدا في مستوى الكلمة والصوت إلى غاية الأسلوب وبناء العبارة، وبدءا من تجسيد القانون الفونولوجي إلى غاية التشكل الكوني للغة والخطاب، وتبلور النظام اللساني في زمن ومكان معين وعند إنسان محدد، بعيدا عن كهنوت معاجم المصطلحات والإنشاءات المثقلة بقيود ليس لها مردود عند الإنسان المعاصر ولا تغني الحياة بقدر ما تؤخر المسيرة الحضارية.

ويبرز مظهر ثالث ناتج عن القصور الفهمي للقضية اللسانية وسوء الاستخدام الفعلي للقانون اللغوي عند الفرد الاجتماعي والخلية المجتمعية، وهي أن كثير مما نتخيله يستثمر انطلاقا من إعدادات مسبقة وأحكام معدة سلفا لجيل مضى ولراهن انقضى للسان، فيجد المتكلم الذي يجبر على تمثيل لساني شخصية منفصلة غير متميزة وغير مستقلة. على الرغم من أن لكل إنسان استقلالية وجدانية وشخصية متفردة بداهة وتسليما، حتى وإن اشترك مع بني جلدته في المظاهر الفونومونولوجية في التصرف والتمثلات الاجتماعية للتجمع والحياة، لكن منذ الاختلاف الفونولوجي إلى

تواجد الفعل اللساني الموازي لكل التشابهات السالفة الذكر، مع توقع التمايز اللساني الجماعة عن كل جماعة سابقة ولاحقة، ومن هذه التفجيرات المفترضة ينبثق تميز الفرد والجماعة عن الآخرين، كما أن الانبثاق متفاوت الدرجات لدى الأفراد، ومثاله اللسان والأسلوب والطابع الشخصي انطلاق من الصوت إلى النمط الخطابي ومن السمة التي تختص بها مفرداته وبنيته التركيبية، وخصور الصياغات الخاصة، ونسبة الإبداع اللغوي والتفرد في الكيان الذاتي له بعنوان الإبداع الذي تكلمنا عنه سلبا وإيجابا، وإن كنا نركز على المظهر الباثولوجي ولنتتبع سياقاته الفعلية واقتراح اصطلاحات اجتماعية لإصلاح القانون اللساني .

ثمة مظهر ناتج عن ما سبق، وهو أن هناك استخدامات اجتماعية وأساليب وتعبيرية جديدة متطورة بسرعة ومتمثلة للشبكات الاجتماعية المتسلطة في الجماعة اللغوية، وهي التي ظهرت مع المتغيرات التي يعيشها في اللحظة المعاصرة ، أو ما يعبر عنه بالمتكلسات اللسانية ومظاهر التّجمل (Les phraséologies)، فالمعاني التي ترصدناها في معاجمنا عن اللغة وتحكمت في الأفهام لم تعد قادرة في الراهن اللغوي على أداء وظيفتها أو أنها بعبارة أخرى لم تعد وظيفية، ومن ثم آلت الكيانات اللسانية إلى الصفر بل إلى النهايات السالبة الضدية، وهذا التناهي ليس بظاهرة جديدة في التطور الدلالي، فقد تكلم العلماء عن مظاهر التشارك اللفظي والتضاد وغير ذلك مما يشبه هذه الظاهرة في الدرس اللساني الكلاسي عند البشر في أي فترة زمنية، ما يهمنا هنا هو الصدمة التي نلقاها حينما تموت الدلالة القاموسية للفظي وتتعلق بالبعد الفارقي في الدلالة ، وهذا المظهر آلي في الخلق اللساني ويكشف عن حقيقة أخرى في الدرس اللساني والتغذية الاجتماعية والتفاعل الكوني في تولد اللسان سواء من الأيديولوجي أو المحيط الاجتماعي والبيئي والسياسي أم من تطوعات الفرد وآماله وأحلامه أم من المنعكسات الحضارية المعاصرة للمصطلح والتواضع والتعبير، وهي عوامل غير منتهية ومنها الصراع اللغوي الحضاري والفعل السياسي والسلطوي لمن يملك الزمام في التصرف اللغوي مثل أبواق السلطة من صحافة ونظام تعليمي وتلقي عبر الشبابة والشارع والاشتغال الاجتماعي والاقتصادي والبيئي والحربي... وغير ذلك.

وفي مضمار حديثنا عن الفعل السياسي الذي يمارس فعلته المشينة في الفعل والحدث اللساني، فطال ميدان السلطة اللغوية إلى الفكري والمنطقي في اللغة، فعذى الظمأ الشعبي بما يخدمه من انتقاءات لسانية، وكون قاموس الشعب وتصرفاته اللسانية وأشبعتها إلى حدّها الأقصى، ومن ثمة تلاعب بالنفوس وبما يتعلق بهذا القاموس، وخاصة في الأذهان الرخوة والمتلقي الساذج المستهلك للجهاز، ومن ثمة كون السائس رؤية الشعب للعالم بفعل هذا المخزون الذي لا يتعدى القاموس الذي تلقاه³ ، ومن خلال تفعيل هذا المخزون من طريق طاقات البث المختلفة المتمثلة في القنوات المباشرة أو غير المباشرة ، ومنها الحروب وأسلحة الأفكار والمستجدات التقنية والأبواق الصحفية التي ما تزال تشحن القاموس الفكري للمتلقي بكل ما يملك الإنسان من كثافة طاغوية للغة ، وخير مثال على ذلك المهمة القذرة لقناة الجزيرة في الفترة الأخيرة، حيث لم يترك للإنسان إلا المجال الضيق للفكر النقدي لهذه الأبواق، الذي لم يبرح الطاقة المدحية والتلقي المطبل لها، ونظر إلى هذه الأفكار بالنظرة المنبهة الغالبة على أمره، فمتى مثلا كنا نتصور أن تكون إسرائيل قناة تتحدث باسم الدين الإسلامي ، ومتى كان الصليبيون حريصين على مصلحة الشعوب المسلمة، وهم الذين لبسوا الزائف للمفاهيم وللقيم الخالدة، لأنهم وببساطة ركبوا الجواد العربي في الحرب على العرب وتسلبوا بسيفه، حتى أوهما الساذج بأنهم ذوو نيات حسنة، وهذه الطبقة من ذوي الأفكار الرخوة ظلت تزداد رقعته بالتداول بالأفكار والقشور الأيديولوجية ومنها كانت الساحة المفضلة في عبث السياسيين والسلطويين عند من تودد لديها لقضاء مصالحه المادية والنفعية، وما يهمنا من ذلك هو هذا القاموس المعاصر المشبع بمصطلحات توصف بالغلبة عن تصورات اللغة وتراكيبها الجامدة الآتية بفعل التكرار والاجترار لا التجربة الصادقة لها، وظلت تسيطر على تصورات الفئة الغالبة في

المجتمع والطبقة الهشة فيها، هذه اليد القوية لعبة دورا مهما في تحريك لعبة العنف حينما يغيب الأسلوب الحكيم في التعامل مع قضايا الخصم مثلا.

إن اللغة يملكها القوي دوما حسب نيتشه، وتبقى في أيدي الأقوياء الذين يبتكرون مفاهيم عن القيم (الشر/ الخير، النبل/ الاحتقار...).

وبفعل التكرار والاجترار الذي يطال السوق الكلامية يتمط الخطاب الإيديولوجي والنظام الأنطولوجي السائد في المجتمع، ومنه النظام السيمانطيقي الذي يعمل بآلية تؤشرها أيقونات الاستخدام الفعلي والحاضر الخام في اللسان، هذه الأيقونات كوّنت البوصلة من منظور حضاري اتجاهاته الصراع الحضاري والجشع المادي والسياسي والوجه الشخصي للمتكلم والإشعاع الثقافي والفكري والمخزون الذاكري التاريخي من جهة ومن جهة أخرى الإسهام الفردي والانطباع الذاتي والصورة الفردية التي تسير الكلام في وجهاته الإبداعية والانتماءات الذاتية، ومن جهة أخرى بصمة هوية المتكلم والمالك للوعاء اللغوي، وهذه الأمور كلها تشكل وتبلور المشهد اللساني للمستهدف والمخاطب في الآن نفسه، الذي تشعب من خلال الخطابات الحجاجية والافئاعية التي تحرك كذلك المشهد الاجتماعي من خلال أنظمة التواصل المختلفة وشفراتها، وأساسها الإنسان وأسها قضايا العيش والاشتغالات الأخرى المترتبة عن العيش فردا في المجتمع.

هناك انشغال بحثي نلح عليه وهي إعادة قراءة الدرس اللساني ببعديه الاجتماعي والبرغماتي، الذي تموقع من خلال لغة بديلة في الخطاب اليومي المعاصر، وهذا ما يحتم علينا قراءة الدرس اللساني من منظور خطابي للممارسة الكلامية⁴، وترصد استخداماته وتلقيه من كل الزوايا التي تبحث في الآن نفسه الأنماط والمستويات والأوجه المتعددة للسان والنظام، يعنى أن لا نقصر التفسير في النمط المثالي الفني بل حتى للجانب الباثولوجي من جوانبه الأخلاقية والسياسية والأيدولوجية والثقافية⁵... وغير ذلك من مجالات الاتصال الخطابي.

هناك عوامل أخرى عززت هذا التوجه في النظر إلى حقيقة اللسان، والتوجه إلى دراسة الخطاب المعاصر هي تلك الحاجة الغريزية والفطرية في التقبل والإدراك وآثار النفسية وإمكانات الفعل اللساني والشروحات المزيفة التي نتلقاها عن ترسيمة الصورة الذهنية وما ينطبع عن المجاجعة والمناقشات التي تتجسد في قراءة النماذج الكلامية أو سماعها أو التعبير عنها بمعدل الشمولية والعمق والاعتدال وبميزان اللون اللساني الذي نتلقاه عمدا أو عن غير عمد استحسانا أو إساءة غريبة أو انتماء، تمثلا أو نقدا، نقاشا أو إسداء لوجهة نظر وحسب الإشتغال اللساني للفرد في مستوياته العمرية.

هناك اتجاه يُكتب عنه حديثا هو النزعة التي تعتبر الفرد اسفنجة تمتص إلى حدّ الإشباع واعيا أو غير واعيا وذلك، ناقدا أو سامعا، اللغة، والفعل المؤدي لها الامتصاص هو الذي نبخته في هذه الورقة، فالفعل الذي يعزز هضم وتعدي هذا الهضم بفعل المضاد من الأفكار والتصورات ثم الاستعداد للتمايز في الشخصية والتفطن للألغيب اللسانية وتساولاتها الذي يجب أن نفعلها بتعزيز الإيجابي للسلوك الاجتماعي وتحصين الفعل الإيديولوجي للمفاهيم، ومن ثم مجابهة الخطاب الدعائي وقوانينه التي تتجز في التمثلات الاجتماعية التي من بينها المنجز اللساني.

كان لعامل الأزمات تشكل خاص للسان⁶، بل أن تكونه بهذا الشكل كان سلاحا بما يحمله من إثارة لحساسيات معجميا وعباراتيا وأسلوبيا وقاموسيا والذي يكون المفهومات الضدية ويسلخ عن المتلقي المفاهيم المتأصلة وذلك عبر جهاز مفهومي خاطئ أو قاصر حتى.

إن أنموذج الثورات العربية التي تحلم باستقلال حضاري لها، وللأسف لم تتضح بعد في مجابهة الآخر الذي يجرب صياغاته اللغوية الحديثة بناء ووظيفة في الوسط العربي، عبر قنواته المختلفة في ظل ارتباك سياقي للواجهة الحضارية العربية اللغوية. هذا التخط الذي كان من المفروض علينا دراسته وإيلاء الأهمية له لم تتفطن له إلا الأقلية من الدارسين السوسولوجيين اللسانيين، حيث من مواضعهم المتطرق إليها المفارقات بين التصورات الذهنية والعبارة وبين

الملفوظات والتلفظ وتمثلاتهما الاجتماعية في الشارع والمؤسسات الرسمية، ومثالنا عن هذه النماذج من كلمات: مرتزقة، جردان، بلطجية، فلول، شبيحة... وغيرها، وجئنا بهذه الأمثلة للتمثيل لا الإحصاء.

هناك مظهر آخر للتشكلات الباثولوجية اللغوية تنامي بمعدل هائل للتعبيرات الجرثومية وتفعيل أساليبها وهي تواتر عبارات السب والشتم والابتذال اللغوي والعنف اللفظي، والذي أدى باللغة إلى الانتحار وترجمت في حالات القصور اللغوي بمعادلات الإجرام السلوكي، لأنه في نظرنا مبرر في الفعل اللغوي المشحون بالعنف في شتى مظاهره، وفي الخلايا المجتمعية والتربوية ينشأ هذا التوجه اللساني، كما أن غياب التوجيه والرقابة والإشباع اللساني والفكري اللازم يمكن اللغة من التوحش وفي التصورات تتربط النيرونات بطريقة خاطئة وتصبح الإثارة اللسانية مرتبطة بالفعل الإجرامي، وتقاطعتهما كثيرة، وبهذا الفهم راحت الأيدي الخبيثة تنمي وتغذي السلوكات الفيروسية البافلوفية، وهنا يحدث التجاور اللساني عن حدود الأخلاق والتهديب والرفض والعدول عن الأعراف في التواصل، في قراءة مستثمرة لهذا التجاوز ظلت الأيدي الخبيثة تغازل الشعوب بالفعل الغريزي وبفعل الأيديولوجي المغلوط بل وتحاول تهذيب وعقلة ومنطقة الفعل اللساني، بل وتتلبس حسن النية والتسامح والانتصار إلى الحوار في ظل المعطيات المهترئة والقاعد الهشة والمحطمة عندنا⁷، أننا نعلم علم اليقين متى أُثير مصطلح الإرهاب عند إسرائيل حينما كانت تمارس على الشعب الفلسطيني، ثم ما لبث وإن لُيس الأفكار الإسلامية الأصولية والشعوب العربية. وفي ظل الغياب الناقد والكتابة المضادة التي وإن وجدت طغت عليها القراءة المنبهرة بالمنجز المعاصر الذي خطا خطوات عملاقة عنا في البحث اللساني وآفاقه.

كل هذا التعداد للمظاهر الباثولوجية في التلقي والإنتاج والحاضر الخام في اللسان يؤكد أن حيز اللغة تحدده متغيرات المجتمع، ومن ثم يمكن أن نفهم القضايا ذات الاعتبارات الاجتماعية كالإجرام، أي أن سلطة اللغة تنفذ إلى الفعل السلوكي للفرد، واللغة حسب ج. غسدورف تعمل على توجيه الإنسان في التراتبية الاجتماعية، بحيث تفرض عليه الاستعمال الصحيح للكلمات داخل النظام الذي ينتمي إليه، وفي الوقت نفسه تساعد على الخروج من ذاته والارتباط بالمحيط العائلي والانفتاح على العالم، فبسبب اللغة يضطر الإنسان إلى التخلي عن حياته الداخلية والخاصة لمصلحة الوجود الاجتماعي الخارجي⁸.

وخلاصة هذه النقطة أنه كما يقول "تورمان فيركلو": "أن الأساليب التي نتواصل بها مكبلية ببنى وقوى المؤسسات الاجتماعية التي نعيش ضمنها، ونقوم بوظيفتنا داخلها، كما ترمي إلى إظهار الكيفية التي يحدد بها ذلك الاستخدام اللغوي المعين، وبدرجات متفاوتة، هذه المؤسسات والأدوار التي نضطلع به"⁹.

إن إعادة النظر في المعيار الاجتماعي متحكماً أساسياً في القانون اللغوي، ومن ثمة لا يجب أن نصف اللغة بأنها مجرد نظام من الجمل بل بوصفها خطاباً وبكونها حدثاً متولد من النسيج الاجتماعي وكون ناشئ عن ممارسة توصف بالمغلوبة مرة وصحيحة تارة أخرى، وفي كونها الدينامي المتحول لا الثابت الجامد في بُنى، المستمر والمتجدد تنتظم في مستويات متفاوتة الفنية لدى الأفراد، ومقدر لها الانزياح في الاستعمال العادي والاستعاري في النماذج القياسية والدونية التي توصف باللهجية في الدراسة الكلاسية للغات. وعدم الإقصاء والتهميش في التقصي العلمي للمظاهر اللغوية بمختلف مستوياتها هو الذي يفصح عن القانون الحقيقي باللغة.

ثم إن الفهم العميق لنسيج المجتمع وتكونه من جهة وللمؤثرات التي تفتك به، ثم لإشعاعات هذا التنسج الجديد الذي لا يلبث على حال، ومن جملة هذه الرؤية يتحتم علينا مراجعة الدرس اللساني العربي بربطه بين الفنية والأخرى بالمتغيرات الفنونولوجية والسيكولوجية والعقلية للمجتمع والفرد، وتفسيره بذلك بمتغيراتها وما يحدث من مستجدات حضارية.

2- الانعكاسات الاجتماعية:

ما نلح عليه في وصف الدينامية الاجتماعية، وانعكاساتها الخطيرة في السلوك الاجتماعي للمجتمعات المختلفة المستهلكة والصانعة للحدث اللغوي، فهناك عبأ آخر يتحمله الوضع الاجتماعي والثقافي والسلوكي والتربوي لتراتبية الباثولوجيات الكلامية والممارسات الخاطئة في الممارسات المنحرفة، وهو الأمر الذي يقودنا إلى التساؤل عن أن تعديل التلقي اللغوي وتهذيبه تملكا وتمظهرا وتلقيا وإنتاجا يؤثر في التعديل الحركي في الوضعية الاجتماعية.

إن الواقع اللغوي انحصر في الراهن الاجتماعي والفرد في أطر ضيقة وفي قاموس محصور لتمثلات معينة لا نتيج التجاوز والانفتاح والإبداع الإيجابي في السلوك الاجتماعي، بل ظل بالعكس ينحو بها إلى المنزلقات الخطرة، ومن جملة هذه المظاهر:

- تنامي قواميس السب والشتم والرنذلة والنقد اللاذع والمتحامل، التي تستفز الأمراض الاجتماعية كالغيرة والحسد وبتر النسيج الاجتماعي السليم وتكون علاقات مبنية على المصلحة غير الشريفة في التواصل البشري، في ظل غياب التوجيه والإرشاد وتنمية القاموس المضاد المحتوى على الخير والنبل والشرف... وغيرها من المعاني السامية في المجتمع.

- تنامي قاموس العنف والملاسنة في ظل غياب الرادع ومصداقيته.

- تنامي عبارات غريبة جاهزة ومسكوكات وعبارات اصطلاحية جمملت الأساليب اللغوية، والتي كان من المفترض أن لا تتفاقم إلى الحد المكثف في الراهن اللساني العربي، الذي نعزوه إلى الغزو والتحامل للصياغات على حساب الإنجاز الابتكاري، ونظرا لمصادقية العبارة الاصطلاحية وبلاغتها كالأمثال وحضورها القوي في التعبير والتواصل، هذا كله في غياب البديل اللساني والضمور العقلي في الإبداع وتجريب القاموسي اللفظي.

- تنامي الإرهاب اللغوي والتسلط في أخذ زمام الخطاب دون ترك فرصة للتداول في كل اتجاهاته، أي لا يجب أن نبقي في وضعية المتلقي المستهلك بل يجب أن نتاح لنا الفرصة في الكلام وفي الوضعية نفسها للباحث السابق وفي السياق نفسه وبمعدل قانون الأجداد والحتمي في التجديد الذي يسمح الرسالة باللون اللغوي العربي الأصيل، أي أن غياب القاموس الذاتي الموثوق بالنفس وعدم إتاحة الفرصة لمراجعة الذخيرة الذاكرة التاريخية اللسانية وتلقيها الجيد أوجد هذا القاموس المشحون بالسلبية والقاصر في الآن نفسه وغير الثري بالبدايل اللسانية التي تعوض في كثير من الأحيان بالفعل السلوكي الخاطئ حينما يستثيرها فعل القول، وهذا ناتج كذلك عن التلقي المغلوط للنمط اللساني التاريخي للعربية الذي قدس نماذج من التأليف إلى حد القرآن.

- المفارقة بين خطاب العقل والضمير والمنطقي وبين خطاب الغريزة والمصلحة والوجدان، في ظل غياب وعي بالخصائص المتفرد بها كل منهما، ودون رقابة في التربية اللغوية، والمباعد بينها وبين الأعراف الاجتماعية السليمة المهيبة التي لا تستجيب للأهواء.

- تمثل غالبية المردود اللغوي لأمراض العصر خاصة عند الناشئ، دون الوصول به إلى النضج الكيفي والنوعي وزجه للاكتساب العشوائي في الشارع.

- تنامي الإيقاع والرتم الشعبي للهجوي في الواقعة اللغوية القياسية، ولم يقتصر هذا التنامي الهجين على البنى اللسانية بل تعداه إلى التصور الذهني ومن ثمة إلى الممارسة السلوكية، وكلها عوائق في سبيل الوصول إلى النماذج اللسانية الراقية.

- تنامي التعبيرات المستترة المتمثلة للطبوهات في غياب التوجيه القيمي النبيل للغة وفي غياب توجيه تربوي هادف للممارسة المنحرفة للغة كالشعر والكتابة عن الذي ينفس عن الذات.

- سلبية الخطاب الأيديولوجي ومنها الخطاب الديني الذي أنتج وكرّس المفاهيم المغلوطة أو أنه لم يصل بعد إلى أعماق المخاطب ومن ثمة فارق بينه وبين التصورات المغلوطة والأفكار الهدامة والسلوكيات الثقافية الخاطئة، وللأسف فحتى المخضع للفعل الديني من الأفراد ظل يستهلك منتج واحد بوجه انتقائي من النصوص واللغة التي لا تسمن ولا تغني في مجابهة سلاح الأفكار المستوردة.
- الدماء والمكر في توجيه الساحة اللغوية عبر أجهزة الدعاية والشابكة إلى بناءات أخلاقية هدامة للذات منصهرة في خدمة المصالح العدوانية ومفتكة بالأنظمة اللغوية المناوئة لها، في ظل رقابة شديدة من الآخر لانشغالات المستهدف المتنوعة ومحاولة إشباعها بالمبررات المضادة والقابلة للاستحواذ عليها بدء بالفعل اللغوي، في غياب الأمن الفكري والقيمي والوطني والتاريخي والشخصي والأيديولوجي المواجه بعتاد حربي ومادي ضخم ، وكان من نتائجه تبرير القبول بأبشع الجرائم في حق الذات والقيمي وتعدي العرف والديني والوجداني... وغير ذلك.
- اختراق المعاني السامية بتحويل المعركة اللسانية إلى صراع مصالح وانشغالات زائفة الذي تأباه التصورات بشدة.

ومن خلال هذه المظاهر الباثولوجية في المجتمع ظهرت بالموازاة لها أنظمة باثولوجية لسانية لا تخضع لمنطق ولا لقانون، الأمر الذي باعد بين الاسم والمسمى اللفظي وبين الكلام والمفهوم وبين القول والفعل المجسد لهذه الأقوال المغذاة لسانيا بفعل غياب الرقابة على المستهلك والمستعمل اللغوي الكائن في الشارع والأسرة والتنشئة.

مَنطقة اللغة الجريمة وبررتها وكذا المفاهيم المتساوقة معها مثل الكره... وغير ذلك.

المعيار الأخلاقي في توجيه الظاهرة:

قديمًا وفي الحضارة العربية، كان لترصد العبارة في المجتمع موقع هام ولنا في الدرس الديني الإسلامي دروس وعبر، فالفحش في الكلام والبذاءة في القول صفة قبيحة حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم كل التحذير، فحكم سباب المسلم مبين في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا"¹⁰.

نتكلم عن ظاهرة اجتماعية فشّت في أوساط كثير من المسلمين ، لا يكاد مسلم -إلا من رحم الله- يسلم من هذه الظاهرة، إما فعلاً أو سماعاً من غيره ، وهي ظاهرة يتهاون بها المسلمون حتى اعتادها بعض الكبار وكثير من الصغار، وبعضهم يقولها ولا يعقلها، وهي ظاهرة السبّاب والشتم واللعن والفحش والبذاءة، هذه الظاهرة التي انتشرت في كثير من أوساط المسلمين، حتى إنك لتدخل بعض المجالس فتسمع من الفحش والبذاءة، ومن السبّاب والشتم ما يجعلك لا تستطيع أن تجلس في هذا المجلس، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إن شر الناس منزلة من تركه الناس انقاء فُحْشه)، من الناس من إذا جلست معه لا تتحمل الجلوس معه فنتركه لفحشه ولبذاءة كلامه، حتى إنه بعض الأحيان ليصف العورات وينادي الناس بأسماء البهائم والحيوانات، وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله يبيغض الفاحش البذيء)

سباب المسلم فسوق والمسابان شيطانان، قال عليه الصلاة والسلام يصف هؤلاء الذين يفعلون هذا الفعل، قال: (سباب المسلم فسوق)، فسوق: أي: خروج عن طاعة الله جل وعلا، فمن الناس من إذا نادى لعن وإذا غضب شتم ، وإذا تهاتر مع بعض الناس سب وفحش في الكلام وقال: (المُسَابَّان)، أي: الذي يسب صاحبه ويرد عليه صاحبه (المُسَابَّان شيطانان يتهاثران، ويتكاذبان) وصفهما النبي صلى الله عليه وسلم بأنهما شيطانان لهذا الفعل البذيء وكفى به إثماً وقبحاً أن الله عز وجل يبيغضه (وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً)، وكان إذا بالغ في العتب على أشخاص، قال: (ما باله؟! تربت جبينه) تربت جبينه أقصى ما يقوله عليه الصلاة والسلام في الناس، فانظروا إلى الأدب الذي تحلى به، وانظروا عفة اللسان التي اتصف بها عليه الصلاة والسلام، ثم انظروا إلى مجالسنا، وانظروا إلى ما يحدث بين المسلمين من خصومة أو مزاح وكلام وانظر إلى الفحش والبذاءة والسب والشتم واللعن .

وانظروا إلى القرآن كيف إذا تكلم عن بعض الأمور كنى ولم يصريح أدباً في الكلام والحديث، فلما أرد الله عز وجل أن يذكر الجماع ما صرح به بل سماه ملامسة وسماه مباشرة: "وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ" ¹¹، وأراد الجماع، ولكنه كنى. قال ابن عباس رضي الله عنه: (إن الله كريم يكني ما يشاء...)، انظروا إلى الكرم في الحديث، ثم انظروا إلى مجالسنا، وانظروا إلى السب والشتم حتى إن بعض الناس لا يتوانى ولا يتورع أن يسب ويشتم ويذكر بعض الألفاظ القبيحة أمام صغار السن حتى أصبح بعض صغار السن يتلفظون بها ويقولونها وهم لا يعرفون معناها، ولا يدرون ما مغزاها، ولا يشعرون بخطورتها، والسبب أنه رأى أباه يكلم أمه بهذه الألفاظ أو يكلم جاره أو يكلم صاحبه أو تتازع أبوه مع رجل آخر فسمع أباه يقول: كذا وكذا، فقلده واتبعه في هذه الكلمات.

شدة حياء النبي صلى الله عليه وسلم تتجلى من وصف الصحابة له: "كان أشد حياء من العذراء في خدره". يقول عز وجل: "مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ" ¹². وفي صحيح البخاري أن امرأة جاءت إليه عليه الصلاة والسلام فسألته عن كيفية الاغتسال من الحيض، فقال عليه الصلاة والسلام -وهو يشرح لها، ويبين لها كيفية الغسل- قال: خذي فرصة من مسك، وتتبعي بها أثر الدم، فتطهري بها، فقالت هذه المرأة: كيف أنظهر بها يا رسول الله؟ قال: تطهري بها، قالت: كيف أنظهر بها؟ قال: سبحان الله! تطهري بها، قالت عائشة: فرأيت في وجهه أنه قد استحيا عليه الصلاة والسلام، فأخذت عائشة هذه المرأة في جانب البيت، وأخذت تشرح لها كيف تغسل دم الحيض حياء منه عليه الصلاة والسلام (ولم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا بذيئاً، ولا طعاناً، ولا لعاناً عليه الصلاة والسلام، في يوم من الأيام سئل عليه الصلاة والسلام عن هذه الأمور فكان يجيب بمثل ما أجاب وكان يرى في وجهه الحياء والعفة وكرم اللسان. وكان عليه الصلاة والسلام -كما وُصف- أنه: (أشد حياء من العذراء في خدرها)

وجاءت امرأة -زوجة رفاعه رضي الله عنه -تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله! إن زوجي قد بت في طلاقي -أي: طلقني ثلاث طلاقات- قالت: فتزوجت عبد الرحمن -أي: زوجها الثاني، وهي تسأل، وعند رسول الله عائشة، وأبو بكر، وأحد الصحابة عند الباب وحياء منها انظروا كيف تسأل -فقالت: يا رسول الله! وليس مع هذا الرجل إلا مثل هذه الهدبة، وأخذت جزءاً من طرف ثوبها -حتى لم تستطع أن تتلفظ بهذه الكلمات، مع أنها تستفتي في دينها، قالت: إلا مثل هذه الهدبة، أي: رجل ضعيف لا يستطيع أن يجامع -وكان عند الباب أحد الصحابة. فقال: يا أبا بكر! ألا تتع هذه المرأة عما تجهر به عند رسول الله؟! وما قالت كلاماً فاحشاً، ولا كلاماً بذيئاً، ولا شيئاً قبيحاً كما يقوله بعض الناس -فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لها: لعلك -يا فلانة- تريدين أن ترجعي إلى رفاعه، لا. حتى تذوقي عُسَيْلَتَهُ ويذوق عُسَيْلَتَكَ (فكان عليه الصلاة والسلام أفصح منها لساناً وأشد أدباً عليه الصلاة والسلام فقال حتى تذوقي عُسَيْلَتَهُ، كنى عن الجماع، بالعُسَيْلَةِ، هل رأيتم أدباً مثل هذا الأدب؟ وهل رأيتم عفة في اللسان مثل هذه العفة؟ وهل رأيتم كراماً وشرفاً ورجولة وأدباً مثل هذا، قال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" ¹³ تجلس عنده عائشة، فيمر بعض اليهود، فيقولون: السام عليك يا محمد، والسام: الموت، يظنون أنه لم يفهم.

ففظنت عائشة فقالت: وعليكم السام واللعنة، أي: ترد عليهم مثلما شتموا، وفي رواية: قالت: عليكم السام والذام، أي: الذم، فقال: (مَهْ يا عائشة؟! لا تكوني فاحشة) (وما بالغت عائشة، لكنها ردت السيئة بالسيئة، ولكن أدبه عليه الصلاة والسلام يمنعه من هذا، فقالت: أما سمعت ما يقولون يا رسول الله؟! قال: نعم. ولكني قلت: وعليكم، انظروا إلى أدبه عليه الصلاة والسلام. الشتم واللعن والتحذير منهما).

من الأمور التي تزداد خطورة على هذه الخطورة قضية اللعن وما أدراك ما اللعن؟ بعض الناس اعتاد اللعن على لسانه، حتى إنه في المدح يلعن، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أن اللعنة إذا خرجت من صاحبها تصعد إلى السماء، فتوصد أبواب السماء دونها، وترجع إلى الأرض، فتوصد أبواب الأرض دونها، ثم تأتي إلى الذي لعن -إلى الذي لعنته- فإن كان أهلاً لها أصابته اللعنة، وإلا رجعت إلى قائلها).

ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان (وقال عليه الصلاة والسلام: (لعن المسلم كقتله) فإذا لعنته كأنك قتلتَه .

الخاتمة:

إن البحث عن مكمون اللغة وكنهها غرب متلقي اللغة عن لسانه ونشأت عنده لغة مضادة عن ذاته غدت لها لغة المال والجنس والقوة وحب السلطة وما يصدق الفعل الدعائي اللغوي الغريب عن الإغراء الإسلامي مثل الجنة والبعيد عن إدراك معاني النار والعقاب الإلهي المسبوقة بتكوين مفهومي سليم عن حقيقة الكون والرزق والعيش، وفي ظل وعي تام بهذه الحقيقة في الصراع بين الخير والشر... وغير ذلك من الصراعات الفكرية الشرسة والغليظة التي تعددت منابرها الخطابية، وفي الوقت نفسها انحصر الإصلاح في مواقع معينة.

حري بنا أن نشير إلى الدراسة المناوئة لدي سوسير ونقصد بدراسة "بيير بورديو" التي تعيد القوة للكلمات وسلطانها في ذاتها وخارجها وسياقاتها وتمثلاتها وتمظهراتها بعيدا عن المشروعية والقوانين الصارمة للاستخدام¹⁴، الذي تمرّد فيه المجتمع وتخلق فيه النظام اللساني وتنسجت فيه علاقاته، ومن ثمة كان الحديث مشروعاً للبحث في تتبع مسارات الكلام ورسم قانون لانحرافاته في حدود الترابط الاجتماعي له، ومن ثمة فهو مشروع لإعادة قراءة الدرس اللساني بمحددات حدائية بعيدة عن الثابت البنوي إلى المتحول الدينامي السوسولوجي كيفاً ونوعاً.

الهوامش:

¹¹ - المعري، أبو العلاء: رسالة الصاهل والشاحج، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، ط2/1984، ص: 416.

² - ينظر:

- Saussure. F: Cours de linguistique générale ; Ed : Payot ;1972 .

³ - ينظر: محمد محمد داود: اللغة والسياسة في عالم ما بعد 11 سبتمبر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2003، ص: 25 -

32.

⁴ - ينظر:

- Roland , Barthes : Leçon , Seuil, Paris, 1978.

⁵ - من وجهة نظرنا أنه حينما شرّعنا الحديث عن الشعريات بانزياح عن النظام اللساني، فمن المشابه أن نتحدث عن الانزياحات اللسانية والدلالية في لغة الشارع.

⁶ - ينظر:

- Micheline Cambron : Crise, langage, Fiction : liberté, vol : 32 , no : 5 , 1990, P :17- 29 .

⁷ - ينظر: جون كولنز، روس غلوفر: اللغة المتوحشة- مفردات الحرب الأمريكية على الإرهاب، ترجمة أحمد بن راشد بن

سعيد، جودي للنشر والإعلام، دبي، 2010.

⁸ - ينظر:

- George Gusdorf ; La parole, PUF, 1968- 1977 , P : 45 et la suite.

⁹ - ينظر:

- Norman Fairclough: language and power, LONGMAN- London – New YOURK., P:265.

¹⁰ - الأحزاب: 70-71

¹¹ - البقرة: 187.

¹² - سورة ق: 18.

¹³ - القلم: 4

¹⁴ - ينظر: بيير بورديو: الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء البيضاء، المغرب، ط3/

2007.